برنامج الإصلاح في جماعة كبار العلماء

أحـــلام . . .

للأستاذ محمد محمد المدني

كنت يوماً من الأيام راضي النفس ، ساكن الجأش ، هادئ العاطفة ؛ ونظرت فإذا بارقة من أمل تبرق في جو الأزهر فينبثق منها نور وهّاج تضوء به أرجاؤه ، وتصفو له سماؤه ، ويشرئب إليه الناس بأبصارهم وأعناقهم متطلعين

كتبت يومئذ في (الرسالة) مقالاً : أما موضوعه ، فهو موضوع اليوم « برنامج الإصلاح في جماعة كبار العلماء » ؛ وأما عنوانه الذي أوحت به النفس يومئذ ، فقد كان كلمة جميلة خفيفة على الأسماع ، أعتقد أنها ترجمة واضحة لما كان يدور بالنفوس المستبشرة قبل أن تكون عنواناً لمقال يتحدث عن أعمال « جماعة كبار العلماء » ، تلك الكلمة هي « آمال ... »

ولكنني أعترف الآن أنني كنت مغالياً ومسرفاً في الخيال إلى حد بعيد حين اخترت هذه الكلمة عنواناً لمقالي ، وأنه كان عليّ يومئذ أن أذكر تاريخ الإصلاح في مصر بوجه عام ، وتاريخ الإصلاح في الأزهر بوجه خاص ، لأختار كلمة أخرى غير كلمة « الآمال » . ولست أدري : أمن تقاليد (الرسالة) أن تسمح أحياناً لكتابها بتصحيح ما سلف من العناوين ؟ ولكن أنّى ذلك وقد سارت بذكرها الركبان ، وانقضى عليها أزمان وأزمان ؟

عفا الله عما سلف ! وليكن حديث اليوم تصحيحاً لحديث الأمس ، ولنجعل عليه عنواناً غير ذاك العنوان ، هو « أحلام ... »

* * *

كتب الأستاذ الكبير صاحب (الرسالة) مقالاً خطيراً بالعدد (٤٥٦) عنوانه « لا بد للإسلام من مؤتمر » ؛ وقد استعرض فيه حالة الشرق والعرب ، وذكر تودد الغرب إلى المسلمين في ظروفهم الحاضرة ، ثم عرج بالحديث إلى « العلماء » فقال :

« ولئن سألتني بعد ذلك : هل بلّغ العلماء رسالة الله ؟ لأقولن لك : « لا » مغلظة مكبرة مكررة ! وأكبر الظن أنهم لا يؤمنون بأن لهم رسالة ، وأن عليهم تبعة : رجال السياسة يعملون بحق أو بباطل ، ورجال الحكم يتصرفون بعدل أو بظلم ؛ أما رجال الدين في ممالك الوطن الإسلامي كله ، فقد قنعوا باللقب والزي ، واكتفوا بالشبع والري ، ورضوا أن يكونوا متوناً لذوي الطمع ، وحواشي لأولي النعمة ، وهوامش على صفحة الحياة ! »

قال الأستاذ الزيات ذلك . ومضى في مقاله البليغ يؤيده بالحجج ، ويضرب له الأمثال ، ويهز به النفوس ، ويثير به كوامن الشجون ؛ ثم قال : « لقد عقدنا الآمال بالأزهر في كل ذلك ، فهل عقدناها بلعاب الشمس ؟ كانت جماعة كبار العلماء معقد الرجاء ومناط الثقة ... ولكن برنامج الإصلاح الذي اقترحه شبابها المصلحون ، وأقره أقطابها المخلصون ، قد أدركته أزمة رجعية توشك أن تخنقه في درج المشيخة ؛ فإن عضواً من الجماعة يوجس منه شراً : فهو ينسج حوله الشكوك ، ويؤلب عليه القوى وقد نجح في ذلك . فهل يجوز في ظن امرئ أن يكون في كبار العلماء من يشتبه عليه الحق والباطل والخير والشر والصلاح والفساد ؟ ذلك ما لا نصدقه ، ولا نود أن تجري الأمور بما يحققه »

قرأت هذا المقال مثنى وثلاث ورباع ، واشتد عليّ وقعه ، وساءني هذا النبأ الهائل الرهيب الذي تضمنه ، وقلت لنفسي : هذا يوم له ما بعده ! سوف يتكلم الأزهر ، وسوف يدفع العلماء عن أنفسهم ، وسوف تتحرك الجماعة الموقرة لتثبت للناس أنها سامعة لكل ما يدور حولها ، واعية لكل ما يقال عنها ، ولكني تلبثت لذلك أسبوعاً ، واستظهرت من بعده بأسبوع آخر فلم أجد أحداً من الأزهريين ، رسميين أو غير رسميين ، يعرض لذلك بتصحيح أو تكذيب ، ولم ألمح في جو الجماعة ما يدل على أنها موشكة أن تجتمع لترى في برنامج الإصلاح رأيها . وقد عنيت في أثناء ذلك أن أستمع إلى أحاديث الناس في الأزهر وغير الأزهر عن هذا الشأن الخطير ، فسمعت أحاديث عجباً !

هذه رواية تقول : إن أشخاصاً معينين قد ألفوا التعويق عن الخير ، والتخزيل عن الإصلاح ، قد وقفوا من هذا البرنامج موقف المحارب في السر والعلن ، وجعلوا يصرحون في مجالسهم بأن هذه المقترحات لن تتم أبداً ، ولن تأخذ طريقها إلى التنفيذ !

وهذه رواية أخرى تنقل عن أحد أعضاء الجماعة عبارة يدأب على ترديدها ويرمي بها في وجوه الناس إذا سألوه فيقول : إن هؤلاء الشبان من أعضاء الجماعة يريدون أن يقلبوا الدنيا وأن يغيروا أوضاع العلم في الأزهر . وأن يفسدوا الدين !

وهذه رواية ثالثة تقول : إن مديراً من مديري إدارات الأزهر

قد ساءه أن تفكر الجماعة فى انتزاع إدارته من يده . فأقسم برأس جدوده من الشراكسة : لن يتم هـذا البرنامج ولو كان بينه وبين التمام خطوة واحدة

على أن أثراً آخر من آثار التفكير فى هذه المقترحات قد حدث فعلاً ، وبرز بروزاً رسمياً . ذلك أن لجنة معروفة فى إدارة المعاهد الدينية قد رأى بعض أعضائها فى هذه الاقتراحات مساساً بهم ، وتعريضاً بكفايتهم . فاتفقوا على أن يستقيلوا من هذه اللجنة ورفعوا استقالتهم فعلاً إلى فضيلة الأستاذ الأكبر ، ولكنه لم يقبلها وأمرهم بالبقاء فى أعمالهم !

وتقول جريدة « البلاغ » الغراء فى عددها الصادر مساء التاسع من شهر ابريل الحاضر ما نصه :

« قد رددت إشاعات نرجو ألا تكون صحيحة ، خلاصتها : أن بعض أعضاء جماعة كبار العلماء مع قبولهم هـذا المبدأ وسائر المبادئ التى تحقق الإصلاح وتنظم جهود الجماعة والأزهر والتى انتهت إلى قبولها لجنة بحث المقترحات ، لا يرون أن تنفذ تلك الآراء لأن فى قبولها وتنفيذها اعترافاً ضمنياً بتقصير الجماعة عن التفكير فى ذلك فيما سبق ، وهذا موقف لا يرضاه أعضاء الجماعة لأنفسهم »

وهكذا تختلف الروايات تبعاً لتعدد مصادرها . ولكنها كلها تجمع على شىء واحد هو : أن عقبات تقف فى طريق هذه المقترحات وتحول بينها وبين النور أن تراه ، فهى لذلك حبيسة فى « درج الشيخة » وستظل حبيسة فى هذا الدرج حتى يأذن الله

* * *

يا ويلتا ! أيموت هـذا المشروع أيضاً كما ماتت من قبله مشروعات ؟ وماذا يقول الأزهر بعد ذلك للأمة وقد نادى فى أرجائها البشير : أن قد استيقظ العلماء ، وهبوا للعمل ، وشمروا عن ساعد الجد فى خدمة الدين ونصرة الشريعة ؟

أهكذا يا مصر تنفرج فيك إلى هذا الحد « مسافة الخلف بين القول والعمل ؟ » . أحين تكون الأعمال فكراً تجول فى النفوس ، أو مشروعات تكتب على الأوراق ، يسمع الناس لها ضجيجاً عالياً ، ودوياً صاخباً ، ويرون من حولها هيئات تجمع ، وجلسات تعقد ، وأقلاماً تكتب ، وصحفاً تنشر ، وبشارات تتوالى ، ويخيل بها على الناس أن الأمر جد ، وأن الوعد حق ، وأن ساعة التنفيذ آتيه لا ريب فيها ؛ ثم تمضى الأيام ، وتتلاحق الشهور والأعوام وهذه للمشروعات ساكنة لا حراك بها ، يعلوها غبار ، ويرهقها قتار ، وتوحشها ظلمات الإهمال أو النسيان

أجل ! أجل ! و « أىٌّ هكذا خلقت ! »

ارجع ، أيها القارئ ، إلى مجموعات الصحف والمجلات والسجلات الحكومية تر العجب العجاب : برامج للتعليم بعضها فى أثر بعض ، وبرامج لإنقاذ الفلاح وتحسين حالة الفلاح ، وبرامج للشئون الاجتماعية ، يطنطن بها الدعاة ، وتتملأ بها المسامع والأفواه ، وبرامج حتى للطرق ، وتنظيم المدن ، وتخطيط الشوارع تتداولها أوامر الإقرار تارة ، والإلغاء تارة ، والتعديل تارات ؛ وهكذا تفيض مصر بالبرامج إلى البرامج حتى لو عنينا بجمعها وترتيبها والتبويب لها لأخرجنا من ذلك كتاباً ضخماً ذا مجلدات ! ولكنها برامج لم توضع لتنفذ وتطبق ، ولكن لتكون آية يستدل بها الناس على عبقرية واضعيها ، ولتكتب عنها الصحف أياماً أو شهوراً فتفيض فى تعديد مزاياها ، وتطنب فى بيان فوائدها وما يرجى من آثارها . وما بى من حاجة إلى دليل أؤيد به ما أقول ، فهذا هو التعليم يتعثر فى خطاه ، وهذا هو الفلاح ما يزال كما كان يشرب الطين المذاب ، ويذوق من فقره ودَيْنه ومرضه ألوان العذاب . وهذه هى برامج مصلحة التنظيم يحسب الناس أنها لكثرة ما اعتورها ، وشدة الإبطاء فى تنفيذها ، قد وضعت لتنفذ وينعم بمزاياها سكان البلاد فى القرن الثلاثين ، لا فى هذا القرن العشرين !

فلماذا لا يكون الأزهر أيضاً كهذه المصالح الحكومية ؟ إننا معاشر الأزهريين مصريون ، ولا أحسب أن المصرية تتمثل بجميع خصائصها فى بيئة من البيئات كما تتمثل فى الأزهر ، فإذا أراد امرؤ أن يطبق على هذا الخلق الذى سجله أمير الشعراء على مصر حين قال :

« كل شىء فيه ينسى بعد حين »

وجد الأمثال بين يديه حاضرة فى الأزهر قبل سواه ، فله أن يمثل « بمشروع ترجمة القرآن » أو إن شئت فسمه « مشروع ترجمة تفسير القرآن » وله أن يمثل « بلجان السيد الألفى للأزهر » التى ألفت على الورق ، ورصدت فى السجلات ، ولم تعمل شيئاً ، بل لم تجتمع فيما أظن حتى اليوم ! وله أن يمثل « بمشروع تنظيم المكتبة الأزهرية العظيمة » الذى اجتلب له خبير فنى من المتخصصين فى برلين . وله أن يمثل « بمشروع إصلاح مجلة الأزهر » الذى ألفت له لجنة وقد كان الأستاذ الزيات أحد أعضائها ، ثم اختنق تقريرها وليداً وما زالت المجلة كما كانت بل أسوأ مما كانت كما يعترف بذلك رجال الأزهر المسئولون . وله أن

يمثل «البعوث الأزهرية» التي اهتممنا بها مرة في الدهر واحدة ثم لم تعد كأنها بيضة الديك التي يذكرها في بعض شعره بشار!

له أن يمثل بهذا كله مما ذكرنا، وله أن يمثل بغيره مما لم نذكر، فليس الأمر إذن أمر برنامج الإصلاح في جماعة كبار العلماء وحده، وإنما هو أمر الأزهر جميعاً. هو أمر برامج كثيرة حاولها الأزهر، وعنى بها فضيلة الأستاذ الأكبر؛ بل إننا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن هذه المشروعات جميعها إما بتفكير مباشر من فضيلته، وإما بتفكير يستمد من روحه وإلهامه، ويراد به تحقيق غايته في الإصلاح، وتنفيذ رغباته في النهوض بالأزهر، وإعلاء كلمة الله، وقد حظيت هذه المشروعات كلها بكفالته فاحتضنها وأيدها وأبدى رغبته في تنفيذها، فما هو السر إذن في أن هذه المشروعات النافعة تموت في طفولتها، بل تختنق في مهدها؟ ألا إن السر في ذلك لمعروف: إنه يرجع إلى الذين ألفوا أن يعوقوا الإصلاح، ويشككوا في الخير. يرجع إلى المخزلين المثبطين الذين يتشى النور أبصارهم فلا يحبون أن يروا إلا الظلام، ويدوخ الجو النقي الصافي رءوسهم فلا يحبون أن يعيشوا إلا في الفساد. إنه يرجع، يا سيدي الأستاذ الأكبر، إلى الذين مردوا على النفاق، ورضعوا أفاويقه، وتلونوا في كل عهد بلون، ولبسوا لكل حالة لبوسها؛ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم!

هنا فقط موضع العلة ومكان الداء، وهنا فقط مفصل الدواء، ومقطع العلاج، لمن أراد العلاج!

رباه! ماذا قلت؟ وأي سر كشفت؟ ولكن ... لا! إن الأمر لم يعد سراً. وهل سرٌّ ما تفيض به المجالس والأندية، وتخوض فيه الصحف والمجلات؟

إنني أتخيل أبناءنا وأحفادنا القادمين وقد أرادوا أن يحصوا لنا أعمالنا ويذكروا مبلغ برنا بوعودنا: أتخيلهم وقد وجدوا في صحفنا، في جرائدنا ومجلاتنا، مشروعات أعمالنا، فجعلوا يتابعون البحث في هذه الصحف عدداً بعد عدد، ومجلداً بعد مجلد، لعلهم يعثرون فيها على خبر التنفيذ كما رأوا أخبار التفكير، لعلهم يرون آثار الأعمال كما رأوا آثار الأقوال، ولكنهم - واخجلتاه - سيبحثون جاهدين، ثم يولون البحث صابرين، فلا يجدون لهذه الأعمال أثراً، ولا يحسون منها شيئاً، ولا يسمعون لها ركزاً. فلعل أحدهم يومئذ يضطجع كما يفعل امرؤ أعياه البحث وأشناه التعب ثم يقول:

رحمة الله عليكم أيها الآباء! لقد كنتم تعرفون حقاً كيف تكون الـ «أحلام ...!»

محمد محمد المدني
المدرس بكلية العربية

تأليف

أصدرته بمناسبة ذكرى مولده مجلة

مجلة الفكرة العربية والثقافة الاسلامية

صدر هذا العدد في موعده بتاريخ أول ربيع الثاني

فهرس موضوعات العدد

المنتصر: بتوقيع الأنصار — هذه سنتي: من كلام الرسول — لماذا هو محمد؟: بقلم طالب جامعي — مولد الرسول الأمين: الأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم — محمد القائد والزعيم: الأستاذ محمد علي ناصف — كيف دعا محمد للاسلام: الأستاذ محمد عبد العظيم الزرقاني — محمد طيب الانسانية: الدكتور عبد الواحد الوكيل بك — محمد يحرر أوروبا: الأستاذ أحمد عطية الله — هذا اليتيم!: بقلم معلم إلزامي .. — مدينة الجهاد: الدكتور أحمد فكري — الحضارة البيضاء: قصيدة للأستاذ محمد المهياوي — كوكب السماء: قصيدة للأستاذ عمر الفسوقي (مدير كلية المقاصد الاسلامية ببيروت) — محمد كما يتصوره المصريون!: الأستاذ حسن عبد المقصود — اليقظة الاسلامية وحب العرب: بقلم «أحمد صبري» — نابليون يحتفل بمولد النبي!: الأستاذ محمد ظافر — تصوير الألم: قصيدة شاعر الهند محمد إقبال — أعياد الميلاد تقليد وثني!!

ويهذا العدد خريطة تبين مدى انتشار المسلمين في العالم الحديث

الاشتراك السنوي في مصر والسودان والأقطار العربية ٢٠ قرشاً وللمعلم الالزامي والطالب ١٥ قرشاً والمكاتبات وطلب الأعداد بعنوان الأنصار

٢٤ شارع البستان — القاهرة